

دلائل الإعجاز

وتَهَمَّ نُذُهُ ضَمِيرَ عَمْرٍو يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ لَزِيدٍ وَأَنْ يُقَدَّرَ حَالاً لَهُ . وليس كذلك : جاءني زيدٌ وهو يسرعُ لأن السرعةَ هناك لزيدٍ لا محالةَ فكيفَ ساغَ أَنْ تَقْيَسَ إحدى المسألتين على الأخرى قيل : ليس المانعُ أَنْ يكون يسرعُ في قولك : جاءني زيدٌ وعمرٌو يسرعُ أمامه حالاً من زيدٍ أَنْزَلَهُ فَعِلُ لَعَمْرٍو . فإنك لو أَخَرْتَ عَمْرًا فَرَفَعْتَهُ بيسرع وأوليتَ " يسرعُ " زيداً فقلتَ : جاءني زيدٌ يسرعُ عمرٌو أمامه . وجدته قد صُلِحَ حالاً لزيدٍ مع أنه فَعِلُ لَعَمْرٍو وإنما المانعُ ما عرَّضْتُكَ مِنْ أَنْكَ تَدْعُ عَمْرًا بِمَصْيُوعَةٍ وَتَجِيءُ بِهِ مَبْتَدَأً ثُمَّ لَا تُعْطِيهِ خَبْرًا . ومما يَدُلُّ عَلَى فسادِ ذلك أنه يؤدي إلى أَنْ يَكُونَ " يسرعُ " قد اجتمعَ في موضعه الذَّصْبُ والرفُوعُ وذلك أَنَّ جَعْلَهُ حالاً من زيدٍ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ في مَوْضِعِ نَصْبٍ وجعله خبراً عن عمرٍو المرفوعِ بالابتداءِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ في موضعِ رَفْعٍ . وذلك بِسَبِيلِ التَّدَاوُلِ . ولا يَجِبُ هَذَا التَّدَاوُلُ إِذَا أَخَرْتَ عَمْرًا فقلتَ : جاءني زيدٌ يسرعُ عمرٌو أمامه . لأنك ترفعه بيسرعُ على أنه فاعلٌ له . وإذا ارتفعَ به لم يوجبْ في موضعه إعراباً فيبقى مُفْرَغاً لأنَّ يَقْدَرُ فِيهِ النصبُ على أَنَّهُ حالٌ من زيدٍ وَجَرَى مَجْرَى أَنْ تَقُولَ : جاءني زيدٌ مسرعاً عمرٌو أمامه . فإن قلتَ : فقد ينبغي على هذا الأصلِ أَنْ لَا تَجِيءَ جُمْلَةً مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ حالاً إلاَّ معِ الواوِ وقد ذكرتَ قَدِ لُ أَنْ ذَلِكَ قد جاءَ في مواضعَ مِنْ كَلَامِهِمْ فَالْجَوَابُ أَنَّ الْقِيَاسَ وَالْأَصْلَ أَنْ لَا تَجِيءَ جُمْلَةً مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ حالاً إلاَّ معِ الواوِ . وأما الذي جاءَ مِنْ ذَلِكَ فَسَبِيلُهُ سَبِيلُ الشَّيْءِ يَخْرُجُ عَنْ أَصْلِهِ وَقِيَاسِهِ وَالظَّاهِرُ فِيهِ بِضَرْبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ وَنَوْعٍ مِنَ التَّشْبِيهِ . فقولُهم : " كَلِمَتُهُ فُؤُهُ " إِلَى فِيَّ " إِنَّمَا حَسُنَ بِغَيْرِ وَאוּ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْمَعْنَى كَلِمَتُهُ مُشَافِهَةٌ لَهُ . وكذلك قولُهم : " رَجَعَ عَوْدُهُ عَلَى بَدْوَتِهِ " إِنَّمَا جَاءَ الرِّفْعُ فِيهِ وَالْإِبْتِدَاءُ مِنْ غَيْرِ وَאוּ لِأَنَّ الْمَعْنَى : رَجَعَ ذَاهِباً فِي طَرِيقِهِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : " وَجَدْتُهُ حَاضِراً : الْجُودُ وَالْكَرَمُ " فَلِأَنَّ تَقْدِيمَ الْخَبَرِ الَّذِي هُوَ " حَاضِرُهُ " يَجْعَلُهُ كَأَنَّهُ قَالَ : وَجَدْتُهُ حَاضِراً عِنْدَهُ الْجُودُ وَالْكَرَمُ . وَلَيْسَ الْحَمْلُ عَلَى الْمَعْنَى وَتَنْزِيلِ الشَّيْءِ مَنْزِلَةً غَيْرَهُ بِعَزِيزٍ فِي كَلَامِهِمْ وَقَدْ قَالُوا : زَيْدٌ اضْرِبْهُ . فَأَجَازُوا أَنْ يَكُونَ مِثَالُ الْأَمْرِ فِي مَوْضِعِ الْخَبَرِ لِأَنَّ الْمَعْنَى عَلَى الذَّصْبِ نَحْوُ : اضْرِبْ زَيْدًا . وَوَضَعُوا الْجُمْلَةَ مِنَ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ مَوْضِعَ الْفِعْلِ وَالْفَاعِلِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَدْعَوْهُمْ وَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ) لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمَعَادِلَةِ أَنْ تَكُونَ الثَّانِيَةُ كَالْأُولَى نَحْوُ (أَدْعَوْهُمْ أَمْ صَمَتُّمْ)

